



مظاهر التجديد في القصيدة العربية (دراسة مُوازنة)

الفازة رمضان محمد هويدي

جامعة الزاوية.. كلية التربية أبو عيسى

Aspects of Innovation in the Arabic Poem (A Comparative Study)

Al-Fazah Ramadan Muhammad Huwaidi

University of Zawiya – College of Education, Abu Isa

al.mohammed@zu.edu.ly

تاريخ الاستلام: 2025/11/2 تاريخ المراجعة 2025/11/06 تاريخ القبول: 2025/11/30 - تاريخ النشر: 2025/12/18

مُلخَص

تَحَتَّ القصيدة العربية منذ بكورة نشأتها مناحي عديدة، تشكَّلت فيها بشكل العصر ونتاجه الثقافي؛ لأنَّ الشعرَ لسانُ حالِ الأمم، وسجلُّ تاريخ الشعوب، ولا شكَّ أنَّ التغييرَ كانَ ضرورةً أَلْجَأَتْ إليها حاجةُ العربِ في مراحلهم التاريخية المختلفة، فالتعبيرُ عن قضايا الزمنِ وأحداثِ الوقتِ لا بُدَّ فيه من مناسبتِهِ لثقافته، وقد اتَّخذت لها القصيدةُ العربيةُ سُبُلًا شتَّى بدا التغييرُ فيها أمرًا حتميًا يعودُ لأسبابٍ اجتماعيةٍ وتاريخيةٍ وسياسيةٍ، ولم تقتصر طبيعةُ التجديدِ في القصيدة العربية على القالبِ التقليديِّ لها، بل تخطت ذلك لتُحيطَ بالجوهرِ والمضمونِ الشعريِّ، منتقلةً بذلكَ عبرَ نافذةِ الزمنِ من الشكلِ المعروفِ في أوائلِ مراحلهِ إلى الصُّورةِ التي أسهمَ الامتزاجُ العربيُّ بثقافةِ الغربِ بالنَّصيبِ الوافرِ الذي أحوالَ القصيدةِ إلى إطارٍ مُفَعِّمٍ بالرموزِ والصُّورِ والبنىاتِ الاستعاريةِ ذاتِ الأبعادِ الدلاليةِ بعيدةِ الغورِ في تحريرِ مقاصدِ الخطابِ، وهذا ما تتناولُهُ هذه الدراسةُ هنا.

الكلمات المفتاحية: القصيدة العربية؛ التجديد والتغيير؛ المضمون الشعري؛ الثقافة الغربية؛ الرموز والصُّور؛ البنىات الاستعارية؛ الأبعاد الدلالية.

Abstract

The Arabic poem has taken numerous directions since the earliest stages of its emergence, taking shape in accordance with the spirit of its age and the products of its culture, for poetry is the tongue of nations and the register of peoples' history. There is no doubt that change was a necessity imposed by the needs of the Arabs across their various historical stages, since expression of the issues and events of the time must be commensurate with its culture. The Arabic poem has adopted various paths in which change appeared inevitable, owing to social, historical, and political causes. The nature of renewal in the Arabic poem was not confined to its traditional form, but rather transcended that to encompass the poetic essence and content, thereby moving through the window of time from the familiar form of its earliest stages to the image to which the Arab fusion with Western culture contributed a substantial share, transforming the poem into a framework replete with symbols, images, and metaphorical structures of semantic dimensions that run deep in liberating the intentions of discourse. This is what the present study addresses here.

Keywords: Arabic Poem; Renewal and Change; Poetic Content; Western Culture; Symbols and Images; Metaphorical Structures; Semantic Dimensions.

مقدمة

لقد مرّت القصيدة العربية - منذ بُكورة ميلادها إلى أن بلغت مبلغها من تلقّي النقد المعاصر لها - بمراحل كثيرة أعادت تشكيلها الفني، وأسهمت في ارتقائها وتنامي هيأتها التقليدية التي بدأت عليها، حتى استوت على ساقها أخيراً؛ لتصل إلينا في صورتها التي نراها عليها الآن، ومع ذلك فإنّها لم تقف بتصور العربي الحديث عند ذلك الشكل النمطي المعتاد، فقد حرص شعراء العصر على إعادة تشكيل البنية الفنية للقصيدة العربية؛ لتكون أشدّ مناسبة لمظاهر العصر، وأكثر انسجاماً مع مجرياته ومتغيراته. وقد نصّت كتب اللغة والأدب على اختلاف معايير بناء القصيدة العربية من عصر نشأتها وظهورها إلى زمن استقرارها واستوائها، ويحقّق السيوطي ذلك في (المزهر)¹ بقوله: "وكان أول من قصّد القصائد: وذكر الوقائع المهلهل ابن ربيعة التغلبي"²، يعني أن للقصيدة في أول أمرها أو فيما قبل أن يقصدها مهلهل ربيعة شأنًا ليس كشأنها وصورتها بعده، من حيث سلكت لها بعد ذلك الوقت سبيلاً فيه من الاختلاف ما يؤكد أخذها في التنامي والارتقاء جرياً على سنن الحياة.

وكان من الطبيعي أن يتبع كل مرحلة من مراحل التطور الفني في شكل القصيدة نوع من الاختلاف الجوهري يؤكد مبادئها للقصيدة العربية في مرحلة سابقة، فقد بدأت القصيدة أول ما بدأت على صورة الفواصل المسجوعة غير ملتزم فيه الوزن، وذلك مبدأ عقلي لم يثبت به سند قوي، غير أن الفارابي أيده في كتاب الموسيقى الكبير، فقد جعل للحن جماعة من الأنغام المرتبة ترتيباً أولياً مجرداً، يتبعه بعد ذلك تأليف منظّم تحل فيه الدلالة محلاً يحقق الغاية منه³.

ثم أخذت القصيدة في التطور، فانتقلت من طور الفواصل المسجوعة إلى الأرجاز والحداء، ثم تشكّلت بصورتها التي نراها عليها، غير أنها وقّعت في أبيات قليلة تسمى بالنثف والمقطعات⁴، إلى أن استقلت بصورتها المعروفة من حيث الشكل، أمّا من حيث الجوهر، فقد انتقلت من ظاهرة جداء الإبل واستعمالها في التغيي والتسرية عن النفس، إلى وصف الرحلة والراحلة والوقوف على الأطلال وبكاء الديار⁵، ومن ثم أخذت في الترقّي إلى أن ضمّت بعد ذلك ألواناً من التجديد؛ لتكتسي بمرور الوقت ثوباً جديداً يحقق انسجامها مع قضايا كل عصر.

وانطلاقاً مما تقدّم كان من المناسب أن تقع الدراسة في تمهيد، يُعرّف بمفهوم القصيدة، وأنماط تطورها في عصورها المختلفة، ومبحثين:

أحدهما: أوليّة النشأة وبواكير الإنتاج (القصيدة العربية زمنها الأول)

والثاني: الحداثة الأدبية وملامح التجديد في القصيدة العربية

وخاتمة، وقائمة بمراجع البحث ومصادره.

- أهمية الدراسة:

تتبع أهمية الدراسة مما انطوت عليه من أسباب تجديد القصيدة العربية التي لحقت بها غير الأرملة المتعاقبة، وتتجلى أهمية تلك الدراسة تفصيلاً في:

- إبراز قيمة الشعر العربي في مراحل المختلفة، ومدى تأثيره بوقائع الزمن وتغيّرات الأحداث.

(1) هو كتاب في علم اللغة، جمع فيه شتات علومها وفروعه وأصوله، وتناول فيه الكثير من المسائل المهمة في الشعر والنثر، لجلال الدين السيوطي.

(2) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي، تح: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998،

403/2

(3) يُنظر: الموسيقى الكبير، أبو نصر محمد بن طرخان تح: غطاس عبد الملك خشبة - محمود أحمد الحفني، دار الكاتب العربي، القاهرة، بدون سنة نشر،

48 : 47/1

(4) ينظر: دراسة تأصيلية في القواعد الإجمالية للنقد الأدبي، محمد حمدي الشعار، دار المثقفون العرب، القاهرة، مصر، ط1، 2015، ص212

(5) يُنظر: شرح المعلقات السبع، أبو الحسين الزوزني، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، مصر، 2003، ص7

- معرفة الصورة الأولى التي كان عليها الشعر، وكيف وصل إلى هذه الدرجة من التغير، ودوافع ذلك التجديد.
- التمييز بين ألوان الشعر القديمة والحديثة على هدي من التغيرات التي طرأت عليه عبر الأزمنة.
- أهداف البحث:
- جاءت هذه الدراسة محاولة للكشف عن المجهول الذي دفع العرب في شتى مراحل النظم، إلى تجديد القلب الشعري، والمضمون والموضوعات والأغراض بما ينسجم مع طبيعة الزمن، واختلاف الثقافات، وتفصيل أهداف البحث على ذلك النحو:
- بيان أهمية الشعر في تسجيل وقائع الحياة، ورصد ثقافة العرب الأولى، ومعرفة أهم منجزاتهم الثقافية على مر الزمن.
- الإشارة إلى أن الشعر كغيره من العلوم والفنون، لا يتسم بالثبات والديمومة، بل يتأله من التغير والتجديد بما يناسب وقع العصر ما ينال الفنون الأخرى.
- تأكيد حرص العرب على المناسبة بين ثقافتهم اللغوية مُمتلئة في الشعر والخطابة وغيرهما من الفنون ذات الأهمية الكبرى لديهم، والالتزام الحضاري الذي يُوجب عليهم إحداث تغيير في قوالب بعض الفنون؛ لتكون أشدّ انساقاً معها.
- إشكالات البحث:
- تواجه الباحث مع كل دراسة يُحاولها طائفة من الإشكالات التي يسعى للإجابة عنها أثناء عمله على موضوع بحثه، ومن أظهر إشكالات هذا البحث:
- عدم تناسب الإجراءات المُتبعة في الاختيارات الشعرية المُنتقاة من العصور المختلفة للتحليل؛ لاختلاف آليات التحليل النقدي في كل وقت.
- الاعتماد على الاستقراء التخميني في محاولة الكشف عن أولية الشعر، وكيف بدأ حياته في العرب.
- اختلاف الرؤى العربية والاستشراقية حول بناء القصيدة العربية، وكيف كانت، وما الفرق الجوهرية بينها وبين القصيدة المعاصرة.
- منهج البحث:
- قد يتحكم موضوع الدراسة في اختيار المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه الباحث فيه، وهذا هو الغالب، وقد يكون الأمر اختياراً للباحث حال قبول تناول الموضوع بأكثر من منهج، ولاعتماد الدراسة هنا على الوصف والتحليل، كان التزام المنهج التحليلي أنسب في تناول مادتها.

تمهيد

مفهوم القصيدة:

إن اختيار العربي لمفهوم القصيدة في الإطلاق الشائع على ذلك الضرب من الأدب ذي الإيقاع والقافية والأوزان المخصصة، من باب التناسب؛ فالقصيد يعني التخيير والتمام وبلوغ الغاية في الجودة⁶، وقيل إنما سمي الشعر قصيداً؛ لقصد الشاعر إليه وتروية ذهنه فيه⁷، وقيل سمي الشعر قريضاً؛ لأنه مُقتطع من كلام، كما يُقرض الثوب، ولا يُطلق القريض إلا على

⁶ ينظر: تهذيب اللغة، محمد ابن أحمد ابن الأزهر الهروي، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2001، 274/8

⁷ ينظر: المصدر نفسه، 275/8

الشعر خاصّة⁸؛ لأنّ مبناه على الوصف والتصوير والاستعارات والإيقاع، فهو وإن كان جزءاً من الكلام، إلّا أنّ خصوصيته أفردته عنه.

ومن عادة العرب أنّها إذا سمّت بالصادر، فإنّها تُضيف إليها التاء على آخرها؛ فرقاً بين كونها مصدرًا، وكونها اسمًا علمًا على شيءٍ بعينه، وذلك ظاهرٌ في إضافة التاء على لفظ (قصيدة)، ليتحوّل مع هذه اللاحقة إلى (قصيدة)⁹، ومن ثمّ يظهر الفرق بين المصدر والاسم، والقصيدة علمٌ على ما يقوله الشاعرُ ممّا اشتمل على الوزن والقافية والتصوير البديع.

وحصول المخصوصيّة للشعر بالتسمية ليست غايةً في ذاتها؛ لأنّ مدار القصد ليس على بيان مفهوم الشعر، بقدر ما تستهدف الدراسة الإفصاح عن منطلقات التجديد في أنماط القصيدة العربية، وإنّما كان يلزم التعريف بمفهوم القصيدة؛ لكي تتبلور ملامح التجديد ظاهرةً فيما يراود منها عند الكلام عليها في القصيدة العربية القديمة، ونظيرتها الحديثة.

تطوّر القصيدة:

لم تكن الأشكال الأدبية التي عرّفها العرب قديمًا على صورتها التي وصلتنا عليها الآن، بل إنّ لها مبدأً مجاريًا لسنة العلوم والفنون في التطوّر والارتقاء، وإن لم يكن هذا المبدأ معلومًا عندنا بالضرورة، وقد روعي ذلك وأشير إليه ضمناً وتصريحًا في كلام كثير من الأدباء والنقاد المعاصرين¹⁰، ولأنّ ملامح التطوّر لم تكن حصرًا في الصورة، بل بلغت مبلغها من الجوهر أيضًا، بدأ أن استعراض الترقّي الموضوعي للقصيدة العربية في أزمنتها المختلفة لايقًا بمبحثي الدراسة أكثر منه فيما هنا.

⁽⁸⁾ ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل ابن حماد الجوهري، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4،

1101/3، 1987

⁽⁹⁾ ينظر: تهذيب اللغة، الأزهري، 275/8

⁽¹⁰⁾ يُنظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2017، 22/1

المبحث الأول

أولى نشأة وبواكير الإنتاج (القصيدة العربية زمنها الأول)

إن دراسة أولية الشعر، والتعاطي مع ملامح التغير الطارئة عليه شكلاً ومضموناً في مراحل نموه واستقراره، ليست غاية في ذاتها، بل هي وسيلة تسعة الدراسة على أثرها نحو الوصول إلى أثر مروره بهذه المراحل في صياغة ملامحه الفريدة التي اتسم بها في كل مرحلة منها، ومدى انسجام هذا التجديد مع طبيعة العصر، ومسايرته لمعطياته الحضارية والفكرية والثقافية.

فقد خط الشعر له طريقاً بدأ اختلافاً عن سائر أجناس الأدب العربي ظاهراً فيه من أول الأمر، ذلك أنه ضرب من الكلام لا يقوم على أساس الوزن والتقفية وحسب، بل على الاستعارات والأوصاف، واتفاق أجزائه في الوزن والروي، واستقلال كل جزء منها بمقاصده¹¹، وانطلاقاً من ذلك تكون الغاية من إنتاج الفريضة العربية له رغبة التعبير عن المقاصد بأساليب لغوية ذات بُعد تأثيري بجانب البعد التواصلية.

وبالنظر إلى أن المعيار الذي يُقاس به ما يكون شعراً وما لا يكون هو أن يُعرض على الآلة النقدية، فيقبل منه ما هو صالح للقبول؛ إذا تماس مع الحواس أو أحدها، ويُرفض منه ما لا ينسجم معها¹²، كان مدار موضوع المبحث هنا عن التجديد الموضوعي؛ لأنه الأبعد غوراً في بيان أثر السياق الثقافي في تغير أنماط الموضوعات الشعرية لدى العرب قديماً، وذلك انطلاقاً من ضرورة التعامل مع التراث الشعري "من منظور الوعي بالحاضر، والإدراك للوجود الأنبي"¹³، لقوة تجليبه على الشعر وهيمنته على التشكيلات الفنية التي استقل بها في كل عصر.

وارتكازاً على ما صرح به أكثر النقاد من مرور الشعر بمراحل مختلفة من حيث الموضوع والغاية، أمكن القول أن التجديد الفني في الشعر جاء تابعاً للتجديد الموضوعي، فقد بدأ الشعر حياته بوصفه وسيلة للتسرية عن النفس، ثم انتقل للإسهام في إعانة العرب على حياء إيلهم وزيادة نشاطها في الرحلة أو عند الانتجاع وطلب الكلا، ثم أخذ في مرحلة جديدة بدأ للشاعر فيها أن يعالج ما يختلج في خاطره، ويعتلج في نفسه من هموم يومه، وهذا هو مدار الدراسة هنا.

أولاً: المحاولات الأولى لقرض الشعر:

لم يقف بنا التاريخ على المحاولات الأولى لقرض الشعر، ولا عند تجليات صناعته، فلسنا "نعرف شيئاً عن المحاولات الأولى، أو على الأقل تلك التي سبقت هذه الصورة المتعارف عليها في الشعر العربي"¹⁴، وتبعاً لذلك لم يكن دافع قرض العرب للشعر في أول الأمر معلوماً، غير أن المؤشرات التي تؤكد وجود محاولات عربية لقرض الشعر قبل الأرجاز، تستند على أن طبيعة الأشياء المتغيرة لا بد لها من بدايات غير منتظمة الشكل، ولا مُحَقَّقة الغاية.

ولكن من المناسب أن يقال إن هذه المحاولات لم تكن نتيجة رغبة في إنتاج فن قائم برأسه، بل جاءت نتيجة إلهام الحاجة على إبداع مُنجز يسائر طبيعة الإنسان في التأثر بالإيقاعات الطبيعية المنبعثة من الطيور والحيوانات والرياح وغير ذلك، فَنَاسَبَت البداية هذه الحاجة، دون أن تكون لها علاقة بموضوع معين يُعالجه العربي القديم، وليس لهذه المرحلة شواهد يُمكن الرجوع إليها في رصد حركة التجديد في الشعر عبرها.

¹¹ يُنظر: تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، تح: د. إبراهيم شيوخ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1989، 573/1

¹² ينظر: عيار الشعر، محمد ابن أحمد ابن طباطبا العلوي، تح: د. عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1998، ص19

¹³ مفهوم الشعر (قراءة في التراث النقدي)، د. جابر عصفور، ص8

¹⁴ بدايات الشعر العربي بين الكم والكيف، د. محمد عوني عبد الرؤوف، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط3، 2005، ص21

ثانياً: الرجز:

أما الرجز فهُناك شبه اتفاق بين النقاد المعاصرين على أنه أول ما بدأ به الشعر العربي القديم رحلته، حتى مع عدم وجود إشارة قطعية على ذلك في آراء النقاد الأوائل، فقد ذهب الدكتور عز الدين إسماعيل إلى أن الشعر نشأ في محضن العرب الأوائل على صورة عبارات مسجوعة، ثم انتقل من الفواصل القصيرة إلى الرجز الذي كان أول الإكالات الشعرية ظهوراً¹⁵. ويعزو بعض العلماء ابتكار العرب فنَّ الأرجاز إلى "حركة الإبل في سيرها الرتيب المنتظم، فوجدوا نوعاً من التوافق بين نظام وقع أخفاف الإبل والإيقاع الموسيقي لهذا الوزن"¹⁶، ذلك من حيث الابتكار، فهو على غرار حركة الإبل، أما من حيث المضمون، فلما كانت حاجة العربي داعية إلى ضرورة التغني للإبل في سيرها الطويل بما يُخفف عنها وطأة هذا السير، ويُقصِّر عليها طول المسافة، بدأ له ابتكار شيء مماثل لوقع خطاها على الرمال، فجاء بالرجز¹⁷، والمستخلص من اختصاص الرجز بحداء الإبل في أول أمره، واقتصاره عليه، أن موضوعات الشعر الأولى ارتبطت أيضاً ببساطة الحياة وانحصار موضوعاتها. ويُقال إنَّ أول من رجز الأغلب العجلي¹⁸، وله رجز في سجاح لما تزوجت من مسيلمة الكذاب¹⁹، وذلك زمن الإسلام، ولو سلّمنا بأنه أول من رجز، لانتفى وجود الرجز قبله، ويصحح الدكتور جواد علي قول ابن سلام في الطبقات بقوله: "فليس من الممكن أن رجلاً عالمًا بتاريخ الشعر ودقائقه مثل الجمحي جهل ما هو مُتداول عند كل العلماء أن الرجز من أقدم الشعر"²⁰، يعني بذلك أن رأي الجمحي صائب من حيث الكم لا من حيث الكيف، فالأغلب هو أول من طوّل الأرجاز وبلغ بها مبلغ القصائد، واستدلّ بقول العجاج²¹:

وإن يك أمسى شَبَابِي قد حَسِرَ وفترت مِنِّي البَوَانِي وفتر

إني أنا الأغلبُ قد نَشَر

فقول العجاج: "إني أنا الأغلبُ قد نشر" مُباهاةً بإحياء ذكرى الأغلب العجلي في إنشاد الأرجاز، والسير على منواله فيها. وبمطالعة ديوان العجاج ورؤية بن العجاج، نفق على تغير ملحوظ في السلوك بالأرجاز مسلماً جديداً ينم عن حركة جديدة فيه، فهما لم يقتصرَا بالرجز على المعلوم من استعماله في الحداء، بل تناولوا أغراضاً وموضوعاتٍ أحر، فقال رؤية²²:

دَايَنْتُ أَرَوَى وَالْدُّيُونَ تُقْضَى فَمَطَلْتُ بَعْضًا وَأَدْتُ بَعْضًا

وَهِيَ تَرَى ذَا حَاجَةٍ مُوْتَضًّا ذَا مَعْصٍ لَوْلَا يَرُدُّ الْمَعْضَا!

¹⁵ المكونات الأولى للثقافة العربية (دراسة في نشأة الأدب والمعارف العربية)، د. عز الدين إسماعيل، مطبعة الآداب البغدادية، العراق، ط1، 1972، ص17 : 19

¹⁶ المصدر نفسه، ص20 - 21

¹⁷ ينظر: تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، تر: د. محمود فهمي حجازي وجماعة من المختصين، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ط16، 2003، 52/1

¹⁸ طبقات فحول الشعراء، محمد ابن سلام الجمحي، تحقيق وشرح وتعليق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، المملكة العربية السعودية، ط1، 2001، 732/2

¹⁹ ينظر: المصدر نفسه، 740/2

²⁰ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، دار الساقى، بيروت، لبنان، ط4، 2001، 178/17

²¹ ديوان العجاج برواية عبد الملك بن قريب الاصمعي، تح: د. عزة حسن، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1995، ص68

²² شرح ديوان رؤية ابن العجاج، لعالم لغوي قديم، تح: د. عبد الوهاب عوض الله - دز محمد حسن عبد العزيز، إصدار مجمع اللغة العربية، القاهرة، مصر، ط1، 2008، 3/2 - 4

حيثُ خالفَ رؤيةَ مجزى العادة من إنشاد الرجز في خداء الإبل والتغني به في الرحلة، ذهاباً به في مذهبٍ جديدٍ؛ حيثُ وظّف الرجز في المديح، واستعمال الأرجاز في المدح قبل ذلك الوقت من غير المعتاد، فأتبع الرشك المضمون بعد استقرار الرجز واستوائه على يد الأغلب العجلي ألي طوّله بعد قصره.

ثالثاً: القصيد:

لا يخفى ما في الشعر القديم من معالجاتٍ لموضوعاتٍ وأغراضٍ كثيرة، كالمَدح والوصف والزَّناء والهجاء والنسيب، وغير ذلك مما احتاج العربيُّ معه إلى الوسيلة التعبيرية التي تأسرُ شعورَ المتلقّي، قبل أن تسعى إلى الهيمنة على مداركه، ولم يأت هذا التنوع في فراغ ذهنيٍّ أو وجدانيٍّ غير مسبوقٍ بما يُعَدُّ له الطريق، ويثيرُ القريحة.

والذي يظهر من ذلك أن البنية الموضوعية وصور التجديد فيها جاءت تبعا للتجديد الذي لحق بشكل القصيدة العربية التي بدأت رحلاتها بالفواصل السجعية اليسيرة، ثم لما عرّضت الحاجة للتوسع فيها، جاء الرجز مُعَبِّراً عن اتساع هذه الحاجة، وأخيراً لما دعت الضرورة إلى اتساع العربي في الموضوعات توسع أيضاً في بحور الشعر، وفي أشكال الوزن والقوافي²³، فأخذت ساحة الشعر تشهد تطوّراً ملحوظاً في النمط الشكلي لقصيدة العربية؛ لتُساير الموضوعات التي عرّض للعربي التعبير عنها بها.

ولا تعكس القصيدة العربية زمن الجاهلية القريبة من الإسلام شكل القصيدة العربية مع بداية بزوغ ضوئها من حيث الشكل أو الجوهر، ولا يمكن التكهّن كذلك بشكل القصيدة العربية في عهدها الأول إلا من خلال المقارنات بينها وبين ما كانت عليه في العصر النّالي²⁴، ويعكس قول امرئ القيس²⁵:

عُوجاً عَلَى الطَّلِّ الْمَحِيلِ لِأَنَّا نَبْكِي الدِّيارَ كَمَا بَكَى ابْنُ خِذَامٍ

اتباعه للتقليد الذي اتبعه في ابن خذام في الوقوف بالديار، والبكاء على الأطلال، ولم يسجل لنا التاريخ شيئاً عن ابن خذام الذي صرّح امرؤ القيس بمسايرته له في منهجه²⁶، غير أن أمره لا يخلو من إشارة إلى أن بكاء الديار قديمٌ دائر أعاد امرؤ القيس إليه الحياة؛ فعكس به واحداً من أبرز مظاهر التجديد في الشعر الجاهلي.

ويدل على أن القصيدة العربية كانت على صورة من القصر لم تبلغ بها حد الشعر قول ابن قتيبة في ترجمة مهلهل: "وسمي مهلهلاً لأنه هلهل الشعر، أي: أرقه... ويقال إنه أول من قصّد القصائد"²⁷، أي طوّله، ويدعو إلى التسليم بصحة ما صرّح به ابن قتيبة قول الفرزدق²⁸:

وَأَخُو بَنِي قَيْسٍ وَهْنٌ قَتَلَنَهُ وَمُهْلَهُلُ الشُّعْرَاءِ ذَاكَ الْأَوَّلُ

فالفرزدق أقرب زمناً من مهلهل ربعة، وأجدر بالحكم على أنه أول المُجدِّدين في قالب القصيدة العربية.

²³ (ينظر: المكونات الأولى للثقافة العربية، د. عز الدين إسماعيل، ص 29 : 33

²⁴ (ينظر: تاريخ الأدب العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1995، 1/186

²⁵ (ديوان امرئ القيس، امرؤ القيس ابن حجر الكندي، طبع بعناية: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 2004، ص151

²⁶ (ينظر: المصدر نفسه، 1/183

²⁷ (الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري، تح: 288/1

²⁸ (ديوان الفرزدق، همام ابن غالب بن صعصعة التميمي، تح: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1987، ص493

المبحث الثاني

الحدث الأدبي وملاحج التجديد في القصيدة العربية

لا يمكن اعتبار الحدث الأدبي تياراً وليد الثقافة الحديثة، ولا مخاض التجربة الحضارية المعاصرة، فهو نتاج اختلاط الثقافات، وامتزاج الحضارات، وتعاقب الأزمنة، وذلك شيء قائم لا ينقضي أمده ولا تذهب مدته، وقد انعكس تيار الحدث على طبيعة الفنون والعلوم، فاستقى كل فن من الآخر ما يتكامل به معه، وتتم به فائدته.

ولا يخفى مدى تأثير تيار الحدث على الشعر، فقد نحا الشعر العربي له نحواً من التجديد تماس فيه مع الحضارة العربية المعاصرة من جانب، ومع الحضارة الأوروبية من جانب آخر، فانعكس ذلك على شكل القصيدة ومضمونها، أما من حيث الشكل فقد أفرزت لنا التجربة العربية القصيدة النثرية، وقصيدة التفعيلة، وأما من حيث المضمون، فتبلور في الملاحج الرمزية، والبنية الفنية التي تعد تعنتي بالاستهلاكات الطويلة في بكاء الديار، والوقوف على الأطلال، والتغزل في الحبيبة.

فحياة الإنسان لم تعد على صورتها الأولى، بل انتقلت إلى طور جديد من أطوار التحول التي بدت فيها الطبيعة على غير ما اعتاده منها، فهي لديه عالم من الألغاز والأسرار التي يسعى للكشف عنها²⁹، وقد عزز ذلك المفهوم تجديد الشكل المعروف للقصيدة العربية، بما يعكس تطور العقل البشري ورواه حول الكون والوجود، فراح يصوغ ذلك في قالب جديد متأثر بمعطيات العصر.

وتحت ما أطلق عليه النقد الحديث مفهوم الحدث الأدبي، يمكن عد أول محاولة فعلية للتجديد الكلي في قالب القصيدة العربية ومضمونها، تلك الثورة الإبداعية التي أحدثها شعراء الأندلس فيها، فذلك الذي استحدثه الأندلسيون في فن الموشحات لا يمكن اعتباره محاولة بمفهوم المحاولة المعروف، بل هو ثورة حقيقية وخطوة فعلية قلبت موازين المعرفة العربية بالقصيدة؛ من حيث اتسم الشعر العربي بالسهولة والوضوح، على حين اعتبر الدكتور خفاجي الموشحة فناً "يمتاز بجماله الفني، وكثرة صوره الشعرية وتعقيدها"³⁰، ومع حدث هذه الفن، لم يبعد عما جاء على صورته القديمة في قول القائل:

أَشْرَفْتُ أَنْوَارَ مُحَمَّدٍ وَأَخْتَفْتُ مِنْهُ الْبُذُورُ

يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ نُورٌ فَوْقَ نُورٍ

فذلك - بحسب الدكتور خفاجي - نمط قديم من أنماط التوشيح سار الأندلسيون على منواله، حتى مع اختلاف الشكل العام للموشحة الأندلسية التي اعتمد قالبها الفني على التسميط³¹.

ومن ثم أخذت القصيدة العربية في التجديد، تارة بتوليد أوزان جديدة، وأخرى، بتمثيل أوزان غير عربية كالمواليا، والتوبيت، وثالثة بالتجريد من الوزن والقافية، والتحرر من قيد القالب التقليدي، بحجة انفلات بعض الشعراء العرب القدامى من قيد القالب، بالثورة على القافية الموحدة في قول القائل³²:

فَمَا لَيْتَ عَرِينُ ذُو أَظْفِيرٍ وَإِقْدَامٍ

كَحَيِّي إِذَا تَلَاقَوْا وَوُجُوهُ الْقَوْمِ أَقْرَانُ

²⁹ ينظر: ثورة الشعر الحديث من بودلير إلى العصر الحاضر- د. عبد الغفار مكاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 2012، ص43

³⁰ الأدب الأندلسي بين التطور والتجديد، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص398

³¹ ينظر: المصدر نفسه، ص399 : 401

³² الموشح، أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، المكتبة السلفية، القاهرة، مصر، ط1، 1956، ص11

حيثُ غايَر بينَ قافية البيت الأول وقافية البيت الثاني، وهو ما يُطلقُ عليه عندَ العروضيين مفهومُ الإكفاء، وقد عوّل عليه أصحابُ الرأي الذي تنبّأ فكرة الثورة على تقاليد القصيدة العربية³³، غير أنّ هذا من الغلط، والغلط لا يُعوّل عليه في العربية، ولكنّ المُجدّدين اتّخذوه ذريعةً في الثورة على القالب الشعريّ.

والأصل الذي استند إليه المُجدّدون في محاولة تغيير مسار القصيدة العربية، هو ضرورةُ مُسايرة العصر، ومُواكبة ركب الحضارة، واعتنام مظاهر التطوّر والتجديد الحالّة بالمجتمع؛ ليظهر بذلك وجه الارتباط بين النصّ والواقع³⁴، ولا شك أنّ لهذه الأيدلوجيّة وقعها المؤثّر على ما لحقّ بالقصيدة العربية من حدّاثَة الشكّل، وجذّة الموضوع، فقد استغلّ الشعراء الجُد الأساليب الرّمزيّة أكثر ممّا استثمروا الأساليب المُباشرة، وهو شكّل من أشكال التغيير البارزة في نمط القصيدة العربية.

ولم تكن الوظائف الرّمزيّة التي قادت الشعراء نحو الإبهام الإلغاز المُوغل في الإبهام لتتساوى لديهم، فالشعراء الذين آثروا الحفاظ على بقايا الهوية العربية في القصيدة عمدوا إلى ما أطلق عليه شعُر التفعيلة، حيث التزموا نظاماً مُعيّناً في القصيدة العربية الحدّاثيّة، لا يخرُج بالكليّة عن إطارها التقليدي ولا يلتزم كذلك بالوزن والبحر العروضيّ التزاماً كاملاً، وقد اتّفق للدكتور خفاجي أن يُطلق على هذا النوع من الشعر مفهومَ مجمع البحور، وهو الذي "لا يتقيّد فيه الشاعرُ بوزن واحدٍ ولا قافية واحدة"³⁵، وقد أكثر شعراء العربية المعاصرون من هذا اللون من الشعر، ومن بين هؤلاء: جبران خليل جبران، وفدوى طوقان، ونازك الملائكة.

ومن نظائر ذلك قولُ فدوى طوقان³⁶:

واها: هُنا يهفّوا على مجلسي في الأشواق روح حبيب
لم تره عيناي لكنني أحسّه منّي قريباً قريب
أكاذ بالوهم أراه معي يغمز قلبي بالحنان الدقيق
يمضي به نحو سماء الهوى على جناح من شعاع طليق

فهنا وإن قيّدت الرّوي بالسّكون في الأبيات الأربعة، إلّا أنّ مُجملَ الأبيات لم يتّفق في القافية ولا في الوزن، ولا نكاد نجانب الصّواب إذا قلنا إنّها لم تتفق في المضمون، فإنّ حديثَ البيتين الأولين عن الخبيب الغائب الذي تختال أطياؤه لها في مجلسها، وقد صرّحت بذلك، أمّا حديثُ البيتين التّاليتين فإن كان موافقاً لما ضمّه البيتان الأوّلان من معنّى إلّا أنّ التّعريض بما يقع من أثر رؤيتها لهذا الطّيف وهو مُنطلق نحو السّماء محمولاً على جناح الشعاع المذكور يُعطي البيتين حكماً مُستقلاً، ومعنّى مُنفرداً.

ولم تكن الإيقاعات المنتظمة والقوافي المُلتحمة وحدهما عقبة لدى أدونيس، بل إنّ إجراء الشعر الحديث على نمط القصيدة العربية التقليديّة في الوزن والقافية معاً كان حاجزاً منيعاً دون تحقيق الوثبة التي أرادها من حدّاثَة الشعر، فراح ينسج على منوال الشعر الغربيّ، وفي شعره ما يُبرّر ذلك، فقولُه³⁷:

يُحبّني الطريقُ والبيتُ

وجرةً في البيتِ حمراءُ

⁽³³⁾ ينظر: القصيدة العربية بين التطور والتجديد، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1992، 226 - 227

⁽³⁴⁾ ينظر: قصيدة النثر من التأسيس إلى المرجعية، د. عبد العزيز موافي، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، مصر، ط1، 2006، ص32

⁽³⁵⁾ القصيدة العربية بين التطور والتجديد، د. محمد عبد المنعم خفاجي، ص231

⁽³⁶⁾ الأعمال الشعرية الكاملة، فدوى طوقان، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص19 - 20

⁽³⁷⁾ الأعمال الشعرية الكاملة، أدونيس، دار المدى، دمشق، سوريا، ط1، 2002، ص37

يعشقه الماء

يحبني الجار

والحقل والبيدر والنار

تُحبني سواعدُ تكدحُ

تفرحُ بالدنيا ولا تفرح!

فهو هنا يُعبرُ عن امتلاكه ناصية كل شيءٍ بالحبِّ، ولم يلتزم وحدة الوزن ولا وحدة الفعالية، ولعلَّه رأى انسياب المعنى عبر تعديد القوافي والتفعيلات، أنسبُ بمقام الشعر من التزام التقليد الأبدى للقصيدة العربية، ومن هنا أمكن القول إن محور التجديد في القصيدة العربية لدى ادونيس اتخذ من وثوبه على التقاليد الدارجة للقصيدة العربية منطلقاً للتحدي، وذلك الاختيار نابع من إيمانه بضرورة التقليد الغربي في صياغة المعنى الشعري.

ولم يقف التجديد في القصيدة العربية على مظهرها الخارجي فقط، بل تخطى ذلك إلى المضامين الداخلية ليتسرب إلى الصور والأخيلة، ويستعمل الأساليب المعمّاة والمبهمة، فجاء الرمز كواحد من أبرز الظواهر الإبداعية التي عرّج عليها شعراء القصيدة الرمزية في التأطير لعلاقتهم المعقدة بالحياة والكون والوجود³⁸، وتُطلُّ علينا تلك الرموز في قصيدة النثر خاصة، حيث اعتمدتها بوصفها أثراً من آثار الواقع الذي يلجئ الشاعر إلى التعبير عنه بهذا الأسلوب المباين لأساليب الشعراء المعتادة، ولتمثل ذلك نرجع إلى قصيدة الشاعر عماد أبو صالح التي يقول فيها³⁹:

أميرة من زمانٍ قديم

قالت لأبيها الملك:

سمعتُ أن هناك شيئاً اسمه الحب

اشتر لي منه

هرش الملكُ ذقنه

ثم قال للحكيم:

أنا أمرك أن تعلم مولاتك

ما هو الحبُّ

هذه رسالة يا مولاتي

فالمعاني التي ضمّنها الشاعر لهذه القصيدة تتجاذب فيها الواقع؛ لتبرز أثر المتغيرات التي جعلت للحب خصائص مختلفة عما كان عليه زمنه الأول، فاضطرت الشاعر على الرجوع بالزمن إلى الوراء؛ ليصل بالمتلقي إلى ما في الحب من نزعات التغيير التي تشبه تغير الواقع.

ومن ثم كان الرمز بالملك والحكيم إلى ذلك الماضي السحيق الذي كان الحب فيه طبيعة إنسانية لا تقل أهمية عن نظام الملك وحكمة الحكماء، وإشارة إلى تأثير الزمن عليه، وما لحقه من التدليس والزيغ، وهو ما لا نجده بصورته المذكورة في هذا النص في شيء من الشعر العربي التقليدي، فالغزليات التقليدية فيها من التصريح ما لا يحتاج معه المتلقي إلى طول التأمل.

³⁸ ينظر: قصيدة النثر من التأسيس إلى المرجعية، د. عبد العزيز موافي، ص153

³⁹ القصيدة للشاعر عماد أبو صالح، ضمّنها الدكتور عبد العزيز موافي كتابه (قصيدة النثر)، ص264

خاتمة البحث

بعد انتهاء البحث وبلوغ الغاية المرجوة منه، كان من تمام النظر فيه أن نضع له خاتمة تظهر أهم ما انطوى عليه، وهي على نحو ما يلي:

- أن ملامح التجديد في القصيدة العربية لم تقتصر على الشكل فقط، بل امتدت إلى المضمون أيضاً.
- أن للقصيدة العربية وجوهاً مختلفة، لا تنحصر فيما استقر في الفكر الجمعي العربي أنها ذات قالب واحد.
- أن مظاهر التجديد في القصيدة العربية لم تكن مخاض الحداثة، بل إن لها امتداداً قديماً بدأ بالتشعر المؤد.
- أن أكثر ما وقع في القصيدة العربية من مظاهر التجديد اتصل بالعصر الحاضر، أكثر منه في العصور السابقة.

مصادر الدراسة

- الأدب الأندلسي بين التطور والتجديد، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1992
- الاعمال الشعرية الكاملة، أدونيس، دار المدى، دمشق، سوريا، ط1، 2002
- الأعمال الشعرية الكاملة، فدوى طوقان، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1993
- بدايات الشعر العربي بين الكم والكيف، د. محمد عوني عبد الرؤوف، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط3، 2005
- تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، تح: د. إبراهيم شبوح، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1989
- تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2017
- تاريخ الأدب العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1995
- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، تر: د. محمود فهمي حجازي وجماعة من المختصين، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ط16، 2003
- تهذيب اللغة، محمد ابن أحمد ابن الأزهر الهروي، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2001
- ثورة الشعر الحديث من بولدير إلى العصر الحاضر— د. عبد الغفار مكاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 2012
- دراسة تأصيلية في القواعد الإجمالية للنقد الأدبي، محمد حمدي الشعار، دار المثقفون العرب، القاهرة، مصر، ط1، 2015
- ديوان العجاج برواية عبد الملك بن قريب الاصمعي، تح: د. عزة حسن، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1995
- ديوان الفرزدق، همام ابن غالب بن صعصعة التميمي، تح: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1987
- ديوان امرئ القيس، امرؤ القيس ابن حجر الكندي، طبع بعناية: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 2004
- شرح المعلفات السبع، أبو الحسين الزوزني، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، مصر، 2003
- شرح ديوان روبة ابن العجاج، لعالم لغوي قديم، تح: د. عبد الوهاب عوض الله — د. محمد حسن عبد العزيز، إصدار مجمع اللغة العربية، القاهرة، مصر، ط1، 2008
- الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري، تح: أحمد محمد شاكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 2007.

- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل ابن حماد الجواهري، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4، 1987
- طبقات فحول الشعراء، محمد ابن سلام الجمحي، تحقيق وشرح وتعليق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، المملكة العربية السعودية، ط1، 2001
- عيار الشعر، محمد ابن أحمد ابن طباطبا العلوي، تح: د. عبد العزيز بن ناصر المنع، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1998
- القصيدة العربية بين التطور والتجديد، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1992
- قصيدة النثر من التأسيس إلى المرجعية، د. عبد العزيز موافي، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، مصر، ط1، 2006
- المزهري في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي، تح: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، دار الساقى، بيروت، لبنان، ط4، 2001
- المكونات الأولى للثقافة العربية (دراسة في نشأة الأدب والمعارف العربية)، د. عز الدين إسماعيل، مطبعة الآداب البغدادية، العراق، ط1، 1972
- الموسيقى الكبير، أبو نصر محمد بن طرخان تح: غطاس عبد الملك خشبة – محمود أحمد الحفني، دار الكاتب العربي، القاهرة، بدون سنة نشر
- الموشح، أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، المكتبة السلفية، القاهرة، مصر، ط1، 1956